أسس الحياة الجيدة

للأستاذ الياس يعقوب

بعد أن اطمأن الانسان إلى حقه الصريح في البقاء ، طفق يبحث عن الوسائل التي تعلي من شأن الحياة ، وتزيد في جمالها . وهذه الحياة الجيدة التي ينشدها ، حالة ، أبعد ما تكون عن الحصر ومطابقة الوصف ، لأنها لاتتعلق بشؤون العيش وحدها وهي ليست صنع فرد بل مجهود جماعات كثيرة ، ولا تحدث في وقت يمكن تحديده . انها تشبه التراث العلمي الذي اسهم فيه العالم بأسره . وهذه الحياة الجيدة التي نحاول وضع أسس لها ليست نهائية في سلم التطور ، وليست متماثلة بالنسبة للمجتمعات البشرية . لأن هذه متفاوتة في درجات الحضارة ، ومختلفة في الخصائص العرقية والميزات الجغرافية التي تكون عاملاً قويًا في تنوع الحاجات وتباين أهميتها . وان الاختبارات التي تراكمت تختلف بين أمة وأمة ، ولا يجرؤ أحد على القول إن ما يصلح لأمة يكون صالحاً لكل الأمم على السواء .

متى تتحقق الحياة الجيدة ؟ — عندما نتجاوز الأمر الواقع . هناك سبيلان لتجاوز الواقع : العنف والتطور . ان العنف يجاوز لحدود الثورة . والثورة لا يمكن أن تحدث دون أن تبيح العنف أحياناً . ومهما يعتدل الناس في قيادة الثورة ويصحوا وسائلها بالاين فانها تظل عاصفة لأنها تعبير صحيح عن السخط الكامن في النفوس بسبب تراكم الحرمان والظلم في نفوس الكثرة . ان تحجر بعض الأوضاع يفرض نشوب الثورة لأنها أفضل الوسائل للقضاء . على المفاسد ونصرة المبادىء الجديدة وفي مثل هذه الحال يتحتم على الثورة الجديدة أن تعلن من نفسها انها ترغب في اقامة نظام جديد أساسه ضمان الحقوق الشخصية والحريات الأساسية . وهي ليست إلا محاولة لتمهيد السبيل أمام حياة جديدة جيدة

ليست الحياة الجيدة اتوبيا ، في الكلام عن المدينة الفاضلة يطلق الخيال الذي ينصرف لتزويق وتنميق عالم سعيد في أرض يتنكر لها الواقع الجغرافي بشروطه وأوصافه . إن

المفكر يقبع في وجه انباجي ويفرض قيام هذه المدينة التي انبثقت عن الخيال وحده . إن أفلاطون في جمهوريته لم يُعنَ بأحوال بلاد اليونان أو مدينة آثينا ومدى استطاعتها أو قابليتها لتكون فردوساً للجمهورية المنشودة . أما في محاولة وضع الأسس للحياة الجيدة فاننا نتأثر بالواقع السيء ونسعى لازالته . والحياة الفضلى تقوم على أنقاض هذا الواقع . وان المجتمع السعيد لا يتحقق بمعزل عن مؤثراته الطبيعية، وامكانياته الاقتصادية، وشؤونه الاجتماعية . ولهذا لا تكون الحياة الجيدة على نمط واحد في سائر الأقطار . إن المجتمع المصري ، مثلاً ، لا يسعد بنفس الوسائل التي يمكن أن تؤدي الى إسعاد المجتمع السوري .

ما هي المميزات التي تختص بها الحياة الجيدة ؟ إن المجتمع لا يسعد إلا إذا تمت له سيادته لنفسه وعلى مرافق بلاده . وما دام يرزح تحت سيطرة الأجنبي المغتصب فانه لا يتذوق طعم الهناءة ، ولا يجد الفرصة المناسبة للانتاج والبناء . إن هناك شعوباً صغيرة ضعيفة تبدد حيويتها وقواها لزحزحة النير الذي وضعه الأجنبي بدون ما رغبة منها . إنها لا تتذوق إلا المرارة، وتنظر إلى العالم كله بعين الحذر والكراهية . إن الشعوب المضطهدة المستعبدة التي يقع العدوان على حقوقها أو أرضها تمثل العداء والخيانة في كل يد تمتد اليها ، وتزول الثقة من نفوسها انها تنظر إلى المستقبل نظرة تشاؤم وقنوط . إن الشعوب لا تحيا إلا بالحرية كما أن الانسان لا يعيش إلا بالهواء الذي يستنشقه . ولهذا كانت السيادة القومية ، سيادة الأمة لنفسها وعلى مرافقها الدعامة الأولى في صرح الحياة الجيدة .

وينبغي أن يحدث نوع من الرضى الناشيء عن القناعة بالحظ الذي يناله كل إنسان ، وبالعدل الذي يقضي باحترام الشخصية الانسانية في كل فرد والاعتراف بما لها من حقوق ، وهذا التناغم الاجتماعي لا يمكن أن يحصل إلا عند فقدان الجور الذي تتمخض عنه كل خصومة وكل حقد ، وعند فقدان الفروق الشاذة التي ولدتها الظروف السيئة . وهذه الحالة الفضلى لا تكون فردوساً لفئة وجحيماً تشقى به فئة أخرى ، إذ في جوها تزول مرارة الحرمان وآثار البؤس . وما دامت هناك هوة سحيقة بين فرد وآخر من ناحية الثقافة أو الصحة أو المسكن أو جميع شؤون الحياة فلا يرجى حصول الرضى والاطمئنان . ان المواطنين لا يحفرون قبراً للوطن ولا يدقون آخر مسمار في نعشه إذا ما غداهم بخيراته دون محاباة أو تحيز . وان الانسان لا يخلص لوطنه وأمته إلا عند ما ينيلانه الرضى والطمأنينة ، وعند ما يقدمانه عقراً ، إن سعادته رهن بقائهما في عز وخير .

ومن مزايا الحياة الجيدة أن يتطور تفكيرنا . يجب أن يتجاوز تخوم الانانية وما تثيره

من مشكلات ، لكي نفكر ونهتم بشؤون الآخرين . ان تفكيرنا في غيرنا او الاشتراك مع غيرنا في التفكير بأحوال الجماعة الكبيرة — الأمة — يجعلنا نعي قضاياها الخاصة والعامة ونتبادر لايجاد الحلول الصحيحة لهذه القضايا. ان تفكيرنا ينبغي أن يكون اجتماعيًا. فالأنانية والنزعة الطبقية أو المذهبية لا تأتلف والتفكير الاجتماعي وليست من أسسه. في التفكير الاجتماعي خروج من القوقعة التي تكمش فيها الذات فتحرم لذة الماء ونعمة الضياء وتحرم لذة البذل والعطاء. فيه تدرك أن لغيرنا من الحقوق ما لنا ، وان هذه الحقوق لا قيمة حقيقية لها إلاّ بقدر ما تنال من التقدير والاحترام من قبل الآخرين . الى هذه البذور تجعل مهمة الدولة سهلة ، وتقضي على النزاع الطبقي ، وتعمل من غير ما تعمد على قيام المؤسسات الاجتماعية ذات الأهداف السامية .

ولكي تتحقق الحياة الجيدة في أمة ما ينبغي أن نحس توزيع العدالة بين مختلف الفئات التي تؤلف الهيئة الاجتماعية ونضبط العوامل التي تنشأ عن الحياة ضمن المجتمع . فالسيطرة فيها يجب ألاّ تكون من نصيب طبقة معينة خوفاً من أن يكون هناك ظالم ومظلوم ، وحاكم ومحكوم . فلا تقبض يد على الحقوق وتلقي الواجبات على عاتق فئة أخرى ولا تتفاوت الحظوظ بين المواطنين لدرجة شاذة ومخيفة ، كأن يمعن بعضهم في الارتفاع بينما يمعن بعضهم الآخر في التقلص والاختفاء وتموت فئة من التخمة والكسل والسأم، بينما تموت الكثرة جوعاً ولا تأكل لقمتها إلاّ مغموسة في الدم والعرق والدمع ، وتتمنى لو منحت فراغاً لتتذوّق طعم الراحة .

ولا يتاح لواحد أن يكون في قمة الهرم ، بينما يكون السواد الأعظم في سفحه ، ولا يفسح له المجال لكي يستنزف قوّة الجماعة ويستغل أتعابها ليثري ويسمن على حسابها، كما أنه يجب صيانة الفرد خوفاً من أن ينسحق تحت وطأة الجماعة . ولا تجعل المدينة قبلتنا فنخصها بسائر الخدمات الاجتماعية من تمهيد طرق ، وطب ، وعلم ، وتحصيل ، وأمن ، وثقافة ، ونور ، وماء ، بينما يرسف الريف في أغلال الجهل ، ويحصد المرض أبناءه ، وتعني أهله الأسفار الطويلة واضطراب الأمن وفقدان كل أسباب الراحة والمناعة، إن الشعار يجب أن يكون الخير الأعظم للسواد الأعظم .

وكيف يتسنى للمرء أن يتذوّق اللذة في الحياة إذ لم نعمد إلى إزالة المضايقات ؟ هناك نوعان من المضايقات التي تظل مصدر شكوى وقلق ومنافية للإطمئنان وراحة البال : المضايقات التي تأتي عن الطبيعة ، وتلك التي تنشأ عن الحياة الاجتماعية .

إن الإنسان لا يتمكن من استئصال المضايقات الطبيعية وإزالتها من الوجود ،

لكنه يستطيع أن يتلاءم معها ويكيفها ، إلى حدٍّ بعيد ، حسب المقتضى . وإن سعادته تتأخى في الأماكن التي يستطيع أن يتغلب فيها على هذه المضايقات : فتتسع الرقعة الصالحة للزراعة والمواصلات والعمران بتجفيف بعض المستنقعات ، أو ردم البحيرات بغية توسيع الأرض، وصد غزو الرمال، وتطهير بعض المناطق من الحيات والأوبئة . يمكنه أن يغرس الشجر في بقاع كثيرة تصد تقلبات الجو أو تثبيت التربة ، ويستثمر المناطق الصحراوية بوساطة شبكة من الأقنية أو باستخراج المياه الجوفية . وهكذا فإنه يساهم في زيادة مواد التغذية ، ويوجد أرضاً جديدة يتوجه الإنسان المهاجر إليها بدلاً من الأطماع التي تحرك الجماعات للسطو على أرض الجار . ويمكنه أن يكافح الجفاف بوساطة الخزانات والسدود ، ويقضي على المجاعات بإقامة شبكة متقنة من خطوط المواصلات التي تضمن نقل المؤونة بسرعة إلى الأماكن التي اجتاحها القحط وانتشر فيها الجوع . ما أكثر المدن والقرى التي تشكو الظمأ بينما يجري الماء الى البحر دون ما نفع ، فماذا لا يعمد الى جر المياه أو الى رفعها من مجراها المنخفض لنقلها إلى أماكن أكثر ارتفاعاً ؟ إنه لا يستطيع إطالة النهار أو استمراره لكنه لا يعجز عن تبديد الظلام الذي لا يزال يغشي المدن والقرى . ان التلاؤم مع الطبيعة من خصائص الانسان الراقي ، أما التأثر بأحوال الطبيعة فإنه من صفات الانسان البدائي الذي تجرد من كل قدرة على تكييف الطبيعة .

وهناك مضايقات ليست ناشئة عن الطبيعة بل منبثقة من التنظيم السيء وانحطاط المعاني الأخلاقية . أن الانسان يتهدده عدوان : العوز والخوف ولا يزال يبذل الجهود المستمرة ليتحرر منهما .

إن انعدام العدل في توزيع الخيرات على وجه صحيح يجعلها تتراكم هنا وتنعدم هنالك . إن القلق لا ينفك يساورنا ويستبد بنا ما دمنا لا نستطيع الحصول دائماً على ما يلزمنا من كساء وغذاء وسائر الوسائل التي تحقق سلامة الجسم من الأمراض وتؤمن له امكانيات القوة والنمو . ان هذه الأمور ليست كل شيء في حياة الانسان ، لكنها حاجات أساسية لا يمكن الاستغناء عنها . ان توفرها يضمن لنا مستوى مرضياً للحياة ينتج من جراء المنافع المادية التي تتمكن أسرة من الحصول عليها لقاء أتعاب تكبدتها أو خدمات قامت بها . وان هذه الوسائل التي تكون مستوى الحياة لا تقف عند حد من ناحية المقدار أو التنوع ، بل إنها ذات قابلية للتطور في الأشياء الذي يسلك المجتمع . فهي في مجتمع زراعي تختلف وتتبدل إذا ما انتقلنا الى مجتمع صناعي أو بدوي . إن تنظيم الناحية

الاقتصادية يتيح لكل إنسان أن يصبح منتجاً بطريقة من الطرق ، فيشعر وتتغذى بالكرامة والحرية عندما لا يرى نفسه كلاً على سواه ، ويتطهر قلبه من أدران الحقد والحسد اللذين يقلقان راحته ، ويدفعانه الى معاداة بعض الناس الذين ارتفعوا فوقه .

*

ومم يخاف الانسان ؟ إن الطب قد صانه من الأوبئة اتقتا كثيرة ، وأوجد علاجاً لمعظم أدوائه . وان قوى الأمن المنظورة وقوة القانون غير المنظورة تسهر على راحته وتحفظ له عرضه ومعمله وبستانه وحقله وماشيته حينما يكون منصرفاً لعمله أو غارقاً في نومه . إنه يقيم الآن وراء جدران كثيفة ومتينة ، وفي طبقات عالية يرتد عنها الطرف كليلاً ، ويعز على السحاب أن يبلغ ذراها وعلى الرغم من كل ما ذكرت فانه ما برح فريسة الخوف وهذا الخوف يقض مضجعه ويشيع الهموم في نفسه ، ويحول دون استجابتها لرغباتها أو انطلاقها على سجيتها . وما دام الخوف مخيماً على جو نفسه فلا قيمة حقيقية لكل الضمانات المادية التي تبذل له على حساب أمنه النفسي . إنه يريد أن يحيا حراً ، حراً في أقواله وآرائه ، حراً في معتقده ، حراً في أعماله التي لا يمكن أن ينشأ عنها خطر يلحق غيره . لا لأنه ينشد حياة خلت من كل قيد أو نظام ، وخلت من قوانين تحدد الحقوق والواجبات ، وتشير الى الجائز وغير الجائز ، بل لأن المغالاة في تطبيق القوانين ، أو المحاباة في تطبيقها ، قد أرهقته ، إنه لا يريد ، كما يجري في بعض البلدان الدكتاتورية ، أن تمتد أصابع القانون الى أقداس النفس ، وتنفذ عينه وسهامه إلى ما تدعوها بحقوق الانسان الأساسية . اذ الحياة لا تكون سعيدة ما لم يمارس حق الحرية على وجهه الصحيح وعلى أوسع مدى دون عائق . لأن القيم والمثل العليا ، وهي اجتماعية ، لا يمكن أن توجد وتنمو إلا في جو من الحرية ، ولا توجد إلا بالحرية . إن الانسان ينشد حرية الكلام والنشر والمعتقد

ومن المؤسف أن يحجر على الحرية في هذا العصر مثلما يحجر على المصابين بالأوبئة . ومن العار أن تنشب الثورات أولاً في سبيل الحرية ، وتتركز قوة الشعوب ضد الطغيان والاستبداد المطلق ، بينما تدخر القوة والسلاح للحد من الحرية واستئصال جذورها من رأس الشعب .

وإذا كان الإنسان ينتسب لأمة معينة ، ويقر لها بالولاء ، ويعمل لها بإخلاص ، يجب

ألاّ يحول بينه وبين تجاوز التخوم فيسافر أنى شاء ، وبالوسيلة التي يشاؤها ، ويقطن حيث يحلو له . إننا لا نستطيع وضعه في قمقم . ولا يمكن أن يسعد إذا تحولت أرض الوطن الى سجن كبير يسجن فيه المواطنون . لماذا لا يسافر ليرى العالم بعينيه ، ويتعرّف اليه بإدراكه وحسه ، ويدركه على حقيقته . انه يعرف أن هناك شعوباً متمدنة وأخرى متأخرة ، ومناطق حارة وأخرى باردة ، وان هناك غابات وجبالاً وبحيرات ... فلماذا لا يسافر ليرى كل شيء في موطنه الأصلي دون أن ينهض حائل ؟

وان الأمور داخل المجتمع ليست دائماً ترضي ، بل كثيراً ما تهدر القيم والمثل ، وكثيراً ما يحدث شذوذ ، فلماذا يحرم عليه ، كمواطن ، أن يشير إلى الخطأ ، وينبه ويرشد الى ما هو أكثر صواباً ؟ هل الحق كله سر لا يعرفه إلاّ فئة معينة أوتيت العقل والحكمة والرشاد ، أم أن كل ذي عقل منير يتمكن من معرفة الحق ؟ انني لا استطيع أن أتصور مجتمعاً بشريّاً ينعدم فيه التمايز الفكري والتنوع . إن التمايز لا أثر له في مجتمع بدائي وفي مجتمع حكومته بوليسية .

*

في جو الحياة الجيدة المرتقبة لا أثر للارهاب أو الاستبداد . إن حرية الفكر مباحة بشرط ألاّ يقصد إلاّ الخير ، خير الجماعة التي نكون منها وإليها ، ولا تروم إلاّ اصلاحها. إن هذا الخير وهذا الاصلاح لا يتمان إلا إذا أفسحنا المجال لصراع العقائد والمبادىء . إن العقائد لا تحارب بالحديد والنار ، ولا بالضغط والارهاب ، بل بعقائد أفضل وأجل. وكل سلاح يستعمل في معركة الصراع غير هذا السلاح يخل بشرف الصراع وينتقص من قدره . إن اللجوء إلى العنف لتقييد حرية الرأي بربرية من طراز جديد . إن العقائد لايمكن أن تتجلى قوتها أو ضعفها إلاّ إذا خضعت للنقد والمقارنة والتمحيص،فان خرجت سليمة من جميع هذه المعارك أمكن الحكم عليها بالصحة . لقد أصبح الفكر الحر في هذا العصر ، في بعض البلدان ، لعنة تصيب صاحبه . وان جوّاً كهذا الجو الخانق لا يساعد مطلقاً على ولادة أفكار جريئة جديدة . وإذا لم يقدر للآراء المتوارثة أن تتشذب وتتهذب أو تلقح بعصل مبادىء فتية جديدة فانها تشيخ وتفسد . وإن جلال القدم وأبهة الماضي غير كافيين لابقائها مستمرة .

إن الحياة الجيدة لا تكون في تحقيق المساواة المطلقة ، وهو أمرٌ مستحيل ، لا انها

لا ترمي إلى صوغ الناس صياغة واحدة كي ينشأوا نشأة واحدة . بل إنها لا تكون إلا في التنوع الذي يدوم وينمو . من يجرؤ على القول إن الأرض تصبح أجمل مما هي عليه الآن لو أزلنا التضاريس ، أو لو تماثلت الفصول ؟ يجب أن يخلق بين الناس والأساليب التي ثبت صلاحها بالاختبار . ومن ثمّ فان التنوع في أنماط الحياة لا يكون إلا من خصائص المجتمعات الراقية التي سمت نظرتها الى الحياة والكون . وكلما انحدرنا في سلم الحضارة تعذّر علينا العثور على النماذج المتفوقة الفذة . إن الناس يختلفون في أذواقهم ، وهذا يتجلى فيما يستقبحون أو يستحسنون من الشؤون . وانهم يختلفون كذلك في الطبائع والخصائص وكما أننا لا ننجح إذا حشدنا جميع أنواع النبات في منطقة مناخية واحدة ، لأنه يستحيل أن يجد كل نبات ما يلائمه من حرارة ورطوبة في مثل هذا المناخ . فهكذا نرى أن جو الحياة الواحد لا يوفر جميع الشروط لنمو النفوس وتفتح المواهب .

٭

ليست الحياة الجديدة من مستلزمات الأمم التي تطرّق الهرم إلى بنيتها ، وأصبحت عوامل الفناء تعمل فيها أكثر مما تعمل عوامل البناء ، بل من مقتضيات الأمم الفتية ، التي تتدفق حيوية ، وتتطلع الى السؤدد والعز ، وتمضي قدماً إلى الأمام . وإنها تودع الحياة الجيدة عندما تشعر انها أصبحت بدون رسالة ولا غاية ، فتخاذل وتتفسخ ، لكن يسير المطرد الى الأمام ، لا يتطلب السرعة بل ينشد الاتقان . لأن الاسراع في البناء الاجتماعي قد يكون خطراً يجب تجنبه أو كسر حدته ، لأنه يخشى في مثل هذه الحال أن يصاب الصرح الاجتماعي بصدمة عنيفة فيتصدع ويتوقف عن التقدم ، لأن الآراء التي لا تتبلور أولاً في النفوس تظل عرضة لتطرح . أما إذا تركزت وأصبحت عناية العقيدة فانها تكون وقاية للتطور من الانتكاس والفشل . والتقدم لا يمكن أن يتم إلا بولادة إرادة عامة ، موحدة القصد والمصير ، وبتوازن تام بين كفتي الحقوق والواجبات . وهذا التوازن الكلي لا يحدث إلا إذا آمنا أن مصلحة الأمة فوق مصالح الافراد جميعاً . وكل مجتمع لا يمكن أن يتطور إلا إذا شاء أبناؤه ذلك . وانهم لا يحسون دبيب الحياة في نفوسهم إلا عند ما يدركون انهم مدعوون لأداء رسالة نبيلة ، ويشعرون انهم لا يخرجون من مهاوي الذل إلى قمم العز إلا إذ حققوا هذه الرسالة . وكل حركة لا يحدوها أمل ولا تنشد هدفاً لا تصيب النجاح .

(سورية)